الأيقونة ورؤيـة الله

" تعـالَ وانظــرْ..."

يا لها من دعوة جريئة ومقدّسة! فيلبس يدعو نثنائيل ليشاهد معه ماذا؟ بالأحرى مَن؟ الله!

كم كانت هذه الدعوة غريبة بالنسبة لإنسان يهوديّ تعلَّم "أنَّ لا أحد يـرى الله إلاَّ ويمـوت"! وإذا مـا أراد أن يقترب من الله فيمكنه أن يلاقيه في مجده فقط أو عن طريق حلـول مجـده فـي الخيمـة أو المعبـد؛ وإلـى هناك، حيث كان يحلّ مجد الله عند تابوت العهد، كان لا يقترب إلاَّ رئيس الكهنة مرّة واحدة في السنة. فكيف يُدعى رجل يهوديّ بإيمان كهذا ليرى الله مباشرةً؟ لعل واقع هذا التحدّي آنـذاك لـم يكـن أسـهل مـن واقعـه اليوم؟ هل من السهل أن نخرج اليوم، مثلاً، من الكنيسة ونلتقي بقريبنا، مؤمناً كان أم ملحـداً، ونقـوده بيـده لنقول له: تعالَ لأريك الله؟

ورغم أنَّ هذا التحدّي كبير، إلاَّ أنَّ المسيحيّ الحقّ يعرف أنّ الرسـالة ملقـاة علـى عاتقـه. نعـم، هـذه هي رسالتنا أن نكشف الله للآخرين، لأنّنا رسل محبّة وفداء لخلاص الآخـرين. هـذا التحـدّي، رسـالة نتبنّاهـا نحن المسيحيّين بالذات لأنّنا ندرك أنّها "حاجة" الناس الحقيقيّة، والمطلب الأخير للبحث الإنسـانـيّ المعـذَّب غير المنظور.

النـاس يتطلّعـون إلـى شـتّى الأمـور، ويبنـون مختلـف الأحـلام، وينظـرون إلـى أهـداف متنوعـة لأنَّهـم عطشى؛ لكن الخبرة البشريّة دلّت علـى أنَّ الوصول إلـى كـلّ تلـك الغايـات لا يتـرك بعـده إلاَّ العطـش إلـى المطلب الحقيقيّ. لقد عَبَدَ فلاسفة أثينا وجربوا كلّ الآلهة، لكنّهـا كلّهـا لا تـروي العطـش الإنـسانـيّ، لـذلك نصبوا معبداً للإله المجهول الذي جاء بولس يبشّرهم به.

العين البشريّة لا يمكنها أن ترتاح إلاَّ إلى رؤية أيقونة الله. وهذه هي الحاجة البشريّة الأخيرة التي عبَّر عنها فيلبس بالإنجيل حين قال ليسوع: "يا سيّد أرنا الآب (الله) وحسبنا".

الإنسـان خروفٌ ضـال يبحـث؛ والمـسيح جـدَّدنا جـاعلاً إيانـا نـوراً للعـالم. هنـا تكمـن رسـالتنا ورهافتهـا وسمُوّها، أن نقود العالم إلى الرؤية المطلوبـة مـن كـلّ بحـث، إلـى رؤيـة الله. يـا لعظمـة هـذه الرسـالة! إنَّ المحبّة المسيحيّة تلتقط فوراً هـذه الحاجـة البـشريّة لتتبنّاهـا فتجعلهـا رسـالة. "تعـالَ وانظـرْ"، هـذه العبـارة

تلخّص خطاب المسيحيّ مع كلّ إنسانٍ حوله. إنّها تلخِّص بالنهاية، أرثوذكسيّة كلّ مسيحيّ. والمقصود هنا بالأرثوذكسيّة (استقامة الرأي) الأرثوبركسيّة (استقامة المسلك). "تعالَ وانظرْ"، هذه العبارة هي كلمتنا إلى الناس، إلى أيّ فكر انتموا، إنّها هاجسٌ في داخلنا. طوبى لأقدام المبشّرين بعبارة السّلام هذه.

ورداً على السؤال "يا سيّد أرنا الآب وحسبنا"، أجاب يسوع: "من رآني فقد رأى الآب". المسيح هو صورة الآب، إنّه كلمة الآب للناس، يُمثّل كامل المشيئة الإلهيّة، إنّه مكان الآب فعلاً. به نرى ونعرف الآب وهو الذي يكشف لنا. وهذه الكلمة، المسيح، نراه نحن ونتلقّاه ونحيا معه بطرقٍ متعددة.

يمكننا أن نرى يسوع ونخاطبه، ونتعلّم منه بواسطة الأيقونة. هل رأينا أيقونة للضابط الكلّ وتعلمنا منها عناية الله بنا ودعوته لنا! كلّما نظرنا إلى أيقونة الميلاد نجوز بها إلى حدث التجسّد، إلى النداء الإلهيّ، إلى فتح الله لتاريخنا البشريّ، وتاريخنا الشخصيّ الذي يدفعنا إلى جواب يوجِّه حياتنا. الأيقونة هي المسيح معبّر عنه بالألوان. الأيقونة تعبّر حيناً عن عناية الله بهذه الألوان، وحيناً آخر عن جبروته، عن تواضعه، وعن كلّ شيء. وكلّ شيء فيه جميل ويشكل لنا دعوة. فنحن نتخاطب والمسيح بواسطة الأيقونة.

الأيقونة أداة عبادة. ونقصد بالعبادة هنا كلّ ما يقودنا إلى مخاطبة الله والتشاور (الحوار) معه بشأن حياتنا، ومسلكيتنا، ورسالتنا، وعلاقتنا بالآخر. بالأيقونة إذن نرى الله، وبالأيقونة نكشفه للآخرين أيضاً.

وإذا كنا نريد أن نرسم المحبّة الإلهيّة ونكشفها للناس في أقصى حدّ لها، ونلخّص عبارة يوحنا الحبيب، "ليس حبّ أعظم من هذا أن يبذل الإنسان نفسه عن أحبائه"، فلنرسم المسيح باسطاً يديه على الصليب، ولنكشفْ هذا السرّ للجميع. فلنرفعْ يا إخوة الأيقونات عالياً لأنَّها كلمة بألوان، عوض الحروف، فتقودنا إلى تحقيق تلك العبارة "تعالَ وانظرْ". "انظرْ..."، في هذه الأيقونة الحبّ الإلهيّ، وفي تلك عدله، وفي أخرى نداءه، وفي سواها مبادرته، وفي غيرها انتظاره لنا...

إكرام الأيقونات واجب، لأنَّ الأيقونة تجوز بنا إلى عنصرها الأول، كما يقول باسيليوس الكبير، وبالتالي تغدو أداةً نكشف بها الله للناس.

الأيقونة تروي عطش العين البشريّة وتعطيها ارتياحها. القدّيس سلوان الآثوسي حين التحق بالدير بعد حياة متقلّبة وبدأ حياة التوبة وأتعاب الفضيلة، دخل إلى الكنيسة مرّة وهناك شاهد في أيقونة السيّد ملامح الغفران.

فلأيقونتك الطاهرة أيّها الصالح نسجد مستمدين مغفرة الخطايا،

وإيّاها نرفع وننظر، وبها نكشف وجهك وحبَّك ونصرخ إلى كلّ قريب "تعالَ وانظرْ".

آميــن